

الرواية والسيّاحة: المتخيّل السياحي في رواية علي كنعان

"السيف والمرآة، رحلة في جزر الواق واق".

Novel and Tourism: The Tourism Imagination in Ali Kanaan's "The Sword and the Mirror, A Journey to the Waq-Waq Islands."

أ.د. بشير إبرير* كلية الآداب واللغات، جامعة عنابة. bachir.ibrir@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2025/08/06

تاريخ القبول: 2025/08/24

تاريخ النشر: 2025/09/30

ملخص: نتناول في هذا الموضوع، علاقة الرواية بوصفها جنسا أدبيا ونسقا لغويا ومعرفيا، يتسع لقضايا الفكر والثقافة والجمال مع السياحة بوصفها خطابا ثقافيا شاملا لمنظومات متعددة، في الثقافة والسياسة والمجتمع والاقتصاد والإعلام والدين... فكيف يمكن للرواية أن تعبر عن السياحة؟ وكيف يمكن للسياحة أن تتجلى في الرواية؟ ونكون هنا أمام منظور للقراءة ربما نعهده جديدا.

يقضي هذا أن نحدد عدة مفاهيم نراها أساسية هي: مفهوم المتخيل والمتخيل الروائي والمتخيل السياحي، والفضاءات السياحية، وكيف تتجلى في الرواية متخذين من رواية علي كنعان "السيف والمرآة، رحلة في جزر الواق واق".

كلمات مفتاحية: رواية، سياحة، متخيل روائي، متخيل سياحي، فضاء سياحي

Abstract: In this topic, we discuss the relationship of the novel as a literary genre and a linguistic and cognitive system that expands on issues of thought, culture, and beauty, with tourism as a comprehensive cultural discourse for multiple systems, in culture, politics, society, economics, media, and religion... How can the novel express tourism? How can tourism appear in the novel? Here we are faced with a reading perspective that we may

consider new. This requires that we define several concepts that we consider fundamental: the concept of the imaginary, the novelist imaginary, the tourist imaginary, and tourist spaces, and how they are manifested in the novel, based on Ali Kanaan's novel "The Sword and the Mirror, A Journey in the Wak Wak Islands."

Keywords: Novel, Tourism, Fictional Imaginary, Tourist Imaginary, Tourist Space.

1. مقدمة:

اخترت الحديث عن الرواية للعوامل الآتية:

1-1- تعد الرواية نصاً متضاهراً للتخصصات والمعارف؛ التاريخية والنفسية والاجتماعية والدينية والفنية والثقافية والسياسية، وكل ما تعلق بمنظومات المجتمع المعرفية المتنوعة.

2-1- تعد الرواية نصاً أدبياً متميزاً له خصائص معرفية، وفنية جمالية. وهو مصدر من مصادر المتعة من ناحية. ومصدر للمعرفة من ناحية ثانية. إنَّ الرواية نص يطرح إشكالاتٍ كثيرة في فهمه وتبليغه وتلقيه يصلح أن تجري فيه أبحاث متخصصة برؤى وزوايا منهجية متعددة.

3-1- تعد الرواية نسقاً لغوياً له تميزه وخصوصياته بالنظر إلى الأجناس الأدبية الأخرى. وتعد نسقاً ثقافياً جامعاً، يتسع لأجناس وأنواع وأنماط وأشكالٍ من الخطاب. ويشمل فضاءات وأزمنة ومعالَم وشخصيات وحوارات. ويجمع بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي، يستمد معماره من بنية المجتمع بمختلف طبقاته.

2- وأما النموذج الروائي الذي تم اختياره فهو:

«السيف والمرآة، رحلة في جزر الواق واق»

لعلي كنعان. وكما يفهم من عنونها، هي رحلة سردية، هي حكاية سردية، تحكي عن الفضاءات والأزمنة والمعالَم وغرائب التاريخ والأساطير، والعادات والتقاليد والأبعاد

الأنثروبولوجية وكل ما تعلق بخبايا هذه الرواية/ الرحلة مما له صلة بأسرار الحياة ومكنوناتها في اليابان.

عندما قرأت هذه الرواية وجدتها تتحدث عن السيّاحة من ألفها إلى يائها، من أولها إلى آخرها، وهنا اخترت اختياراً آخر، يتمثل في دراستها من منظور سياحي للعوامل الآتية:

1-2- لأن السيّاحة تعد خطاباً ثقافياً كلياً متشابكاً، يجمع بين منظومات عديدة: سياسية وإعلامية وإشهارية وقانونية ودينية وتاريخية وبيئية جغرافية ومالية وأمنية، ويُعدّ النظر إلى السيّاحة نظراً متضافراً التخصصات؛ فلا يمكن أن ننظر إليها من بُعدٍ واحدٍ منعزلاً عن الأبعاد الأخرى.

2-2- لأننا نعد هذا المنظور جديداً على الأقل في بلادنا؛ إذ النظر إلى السيّاحة-في رأيي- يغلب عليه الطابع التقنوي أكثر من غيره. كما أن ربط السيّاحة بالتحليل الأدبي واللغوي وبقراءة الرواية نعدّه نادراً جداً، ويوجد من لا يتصوره بهذه الطريقة، وهذه العلاقة⁽¹⁾.

أرى -في هذا المقام- ممارسة السيّاحة هي أيضاً ممارسة ثقافية؛ أدبية وفنية، عالية المستوى، تعبر عنها لغة وظيفية تخصها.

ولذلك فمن الأغراض التي يأملها، السَّعيُّ إلى عقد الصلة بين الأدب واللغة والسيّاحة بواسطة الرواية. وكما نتحدث عن المتخيّل الأدبي/ الروائي مثلاً: نتحدث أيضاً عن المتخيّل السياحي في هذه الرواية: "السيف والمرأة: رحلة في جزر الواق واق"، التي حفلت بالكثير من هذا المتخيّل.

2-3- نكون بذلك قد ربطنا بين السيّاحة بوصفها نشاطاً حياتياً إنسانياً له هويته في المكان والزمان، وبين الرواية بوصفها نصاً أدبياً يوظف المكان والزمان. إنهما تلتقيان في المكان والزمان، وفي كيفية التعبير عنهما. فيصير المكان على سبيل المثال: «مرشداً سياحياً والقراءة تذكّرة سفر أولى»⁽²⁾

4-2- نوّد أن نلفت انتباه الطالب الجامعي في تخصص اللغة والأدب إلى مثل هذا النوع من القراءة، لربط بين الأدب واللغة ومقتضيات الحياة المتعددة؛ لأن الأدب تعبير فني لغوي عن الحياة ونشاطاتها المتنوعة، وكيف تتم ممارستها في المكان ومعالمه المختلفة.

وذلك بفهم العلاقة الوطيدة بين الأدب والسياحة بصفة عامة والرواية بصفة خاصة. ومن خلال إدراك البعد الاستثماري للأدب إلى جانب البعد الجمالي الكامن في الفضاءات والمعالم السياحية التي تحدثت عنها الرواية.

3- إلقاء الرواية:

حفلت هذه الرواية بفضاءات سياحية كثيرة، وبمختلج سياحي كثيف ومتنوع؛ ولنّ نتناولها كلها، وإنما سنختار بعضها فقط على سبيل التمثيل، ونبدأ بـ:

3-1- جنس النص:

تمثل هذه الرواية نصّاً سردياً من أوله إلى آخره، بل إن كاتبها لم يعبر عنها بالرواية، وإنما وصفها بالرحلة كما جاء في العنوان: "السيف والمرأة: رحلة في جزر الواق واق"، فهي من وإنما هذه الناحية تنفتح على أدب الرحلة وتنتمي إليه، وهكذا تكون الرواية سرداً، والرحلة هي أيضاً سرد. الرواية تسرد أحداثاً. والرحلة تسرد مناظر وفضاءات ومعالم متنوعة كما في هذه الرحلة.

«يشكل السرد ظاهرة ثقافية كونية تتجلى في خطابٍ متباينة، تطول اللغة الشفوية والمكتوبة والصورة الثابتة والمتحركة. وهذا يحضر السرد في الأسطورة والملحمة والتاريخ والمأساة والدراما والملمهة. كما يحضر في اللوحة المرسومة، وفي النقش على الزجاج، وفي السينما والأخبار الصحفية الجارية...»⁽³⁾؛ أي أن السرد حاضر في كل الأنواع والأجناس، ولا توجد مسألة ما إلا وتأخذ نصيبها من السرد.

وقد أخذ هذا العمل الذي قدمه علي كنعان نصيبه الأكبر من السرد، بل إنه قائم على السرد من بداية الرحلة إلى نهايتها. فهو رحلة سردية أدبية ممتعة.

حافلة بتفاصيل كثيرة، وذكريات جميلة عن رحلة حياته في اليابان لمدة ثلاث سنوات من العيش والسفر والسهر والمتعة... مما يجعل هذه الرواية أو هذه الرحلة رحلة سياحية متميزة. ويكون السرد، بذلك، سردا سياحيا أيضا، له درجته من التشويق، وقيّمته من الفن والثقافة؛ الأمر الذي يسوغ لنا الحديث عن أدب الرحلة والسّياحة.

نرى أدب الرحلة مفيدا للممارسة السياحية من حيث تزويدها بالمصطلحات المتعلقة بالمهن والحرف والعادات والتقاليد...

ومختلف الأوصاف الخاصة بالأماكن، وما تعلق بالتاريخ والبيئة الجغرافية المحيطة، والمقارنة بين المحلي والعالمي، وبين ما يمثل "الأنا" وما يمثل "الآخر" على مستويات عديدة.

ويمكن أن نسوغ لأنفسنا بالنظر إلى هذه المعطيات، أن نسمي أدب الرحلة بأدب السّياحة. وتؤدي الرواية دورا بالغ الأهمية فيه.⁽⁴⁾

كما يمكن أن نتحدث عن المتخيّل الروائي والمتخيّل السياحي الذي حفلت به هذه الرواية أو هذا العمل السردى: "السيف والمرأة: رحلة في جزر الواق واق". تشكل الرحلة العمود الفقري في المتخيّل السياحي، وتعد قلبه النابض بالحركة والنشاط؛ ذلك أن فضاءات الرحلة هي فضاءات سياحية بالأساس.⁽⁵⁾

2-3- المتخيّل الروائي والمتخيّل السياحي:

يلاحظ الذي يقرأ: "السيف والمرأة: رحلة في جزر الواق واق"، العلاقة الوثقى بين المتخيّل الروائي والمتخيّل السياحي.

نعد هذه المسألة إشكالية كبرى، معرفية ومنهجية وفنية، وتحتاج إلى أبحاث تخصصها في مجالات عديدة. ولذلك سنكتفي بتقديم تعريفات إجرائية نبني عليها قراءتنا للرواية.

3-2-1- المتخيل:

إنَّ المتخيلَ -كما أراه- هو ما يتم تخيُّله أو تخييله، هو النتيجة الحاصلة من عملية التخيل التي منبعها المُخيَّلُ، والمؤسسة على الخيال، الذي هو ملكة *Compétence* حبا لله بها الإنسان ليرى العالم بالطريقة التي تخصه. والخيال قدرة ذهنية ونفسية وروحية... عندما يشغلها الإنسان تنتج ما تَخيلُته أو ما تَتَخَيَّلُه، ويتجلى في ما نسميه "متخيلا"، يمثل معادلا موضوعيا لما في الواقع من قضايا وإشكاليات متنوعة.

يطال الخيال كل منا حي الحياة؛ بل إنه أساس فيها، ويمثل لها -برأيي- جرعة الأكسوجين التي تنفّسها في الآداب والفنون والعلوم والمعارف المختلفة. إنه ميدان متضافر التخصصات هو أيضا.

3-2-2- وأما المتخيل الروائي:

فيتعلق بالرواية، ويتمثل فيما يستدعيه الروائي من قضايا سياسية أو ثقافية أو دينية أو تاريخية... للحضور في عمله الروائي، لمعالجة الواقع وتحليله وتحديد موقفه منه.

وذلك بتمير على مجهر السرد بوصفه عملا متخيلا يشمل محتوى اتنوغرافيا وأنثروبولوجيا خاصا بالممارسات والسلوكات والمظاهر الثقافية المميزة لمرحلة مؤطرة لتواجد كاتبٍ ما. ومع أنَّ الكثير من السرد ليس واقعيًا، فإنَّ الانفلات اللغوي والأسطوري والتاريخي والسير ذاتي يقدم للباحث معطيات مهمة تمكنه من تأسيس نموذج التصوري المستعار من الإنتوغرافيا والأنثروبولوجيا.

كما تصور ذلك الباحث إبراهيم الحجري في كتابه: "المتخيل الروائي الجسد، الهوية، الآخر". مقارنة سردية أنثروبولوجية.⁽⁶⁾

3-2-3- وأما المتخيل السياحي: L'imaginaire Touristique

فهو مفهوم جد واسع، يحيل مجموعة صور والاستدعاءات المرتبطة بالسياحة على عوالم عديدة مثل: الاكتشافات والأسفار والحج والعطل وأوقات الفراغ والمغامرة والعلاقة بالفضاء، وحياة البدو والرحل، والتيه والاكتشاف...

إن ما نطلق عليه المتخيّل السياحي يمثل نتيجة حركيّ زهاب وإياب، بين البنيات والملاحظات العامة والتركيب الثقافي.⁽⁷⁾

إن بين الرواية والرحلة والسياحة علاقة نسب ووشائج قربي في: "السيف والمرأة: رحلة في جزر الوراق واق". وتمثل الرحلة العمود الفقري في المتخيّل السياحي؛ فهي التي تحركه وتشغل داليه ليؤدي وظيفته في فضاءاته السياحية المتعددة.

3-3- العنوان:

وضع الكاتب عنواناً مثيراً لروايته:

"السيف والمرأة، رحلة في جزر الوراق واق"

وهو عنوان يعود به إلى أصول التاريخ الياباني، بأبعاده الأسطورية وتصوراتهم ومعتقداتهم وما يسمّك به اليابانيون، ويعدّونه جزءاً مهماً من كياناتهم الحضاري والقومي.

فالمطلع على المؤلفات الخاصة بتراث "الشنتو" سيجد هذه الأساطير التي تسرد خلق الجزر- أو الجزائر- اليابانية، وعن ربة الشمس أما تيراسو Amaterasu التي انتصرت على أخيها رب العاصفة سوسانو ولهذا تُعتبر ربة الشمس هي الأم الأولى للشعب الياباني، التي كلفت حفيدها "نينغي" بتعمير الأرض، كما تقول الأسطورة أنّ جدته قدمت له ثلاث هدايا ثمينة هي: السيف والمرأة والجوهر. حيث أن السيف يرمز للرجل والقوة والشجاعة. والمرأة ترمز للمرأة والجمال والصفاء والاكتشاف. وأما الجوهر: فهي كثرمة الكاجو في دائرة تشكل رمز المرأة والرجل معاً، مع العلم أن الدائرة في التراث الصيني ترمز للكمال. والعنصران الأساسيان "يانغ- يين" تحولاً في اليابان إلى (إي، إن)، وهما متكاملان

ومتعاكسان دون صراع: الرجل والمرأة، الخير والشر. (8) وهذه حكمة تصح أن تكون منهجاً للحياة المتوازنة، فإن اختل التوازن وقعت الفوضى وحلت الكارثة.

وأما عن جزر **الواق واق**؛ فلها بعدها الخرافي عند اليابانيين، وعند العرب كذلك. فقد ورد ذكرها في كتبٍ تراثية كثيرة مثل: **مقدمة ابن خلدون** (9)، و**الروض المعطار في خبر الأقطار**، لابن عبد المنعم الحفيري (10) في خمسة مواضع. كما ورد ذكرها في كتاب: "ألف ليلة وليلة" بوصفها بلاد خرافية أسطورية، و"أشعب في بلاد الواق واق"، ليعقوب وجيه السيد. (11)

ومن الأساطير التي حيكت حول "الواق واق"، أنها عبارة عن مجموعة من الجزر، تحدد أغلب المراجع موقعها في بحر الصين أو بحر الهند. أما عن تسميتها، فهناك من يقول بأن البحارة والتجار العرب حينما كانوا يسافرون ويلمحون سفن القراصنة اليابانيين؛ يصيحون "واكو واکو" أي قراصنة؛ فهي كما قال الأستاذ "نوتوهارا" مأخوذة من كلمة Wako التي اختزنها الأجداد العرب في ذاكرتهم ونسجوا حولها أساطير عديدة. (12)

هكذا يكون عنوان الرواية خلاصة لبعض الأساطير التي يعتقدها اليابانيون. ثم إن هذا البعد الأسطوري منبعه التراث الصيني الذي يشكل ينبوعاً لمعظم التراث الياباني في رموزه وأساطيره وعاداته وتقاليده ومائدته في الطعام.

يتكون هذا العنوان من عدة كلمات ظاهرة هي: "السيف والمرأة: رحلة في جزر الواق واق"، ولكن توجد كلمة لم تظهر في العنوان على أهميتها في النص؛ وهي كلمة "الجوهرة" التي تجمع بين السيف رمز الرجل والمرأة رمز المرأة. ولو مارست هذه الكلمة حضورها في العنوان ليكون: "السيف والمرأة والجوهرة رحلة في جزر الواق واق"، ربما كان أحسن. ولكن يبقى الاختيار والتقدير النهائي لمبدع هذه الرواية الرحلة.

إنّ **للعنوان دلالات ووظائف متعددة** في الدراسات الحديثة اللسانية والنقدية والبلاغية، إذ يعد في نظريات النص عتبة قرائية مهمة، وعنصراً من العناصر الموازية التي

تسهم في تلقي النصوص وفهمها وتأويلها داخل فعل قرائي شامل، يُفعّل العلاقات الكائنة
والممكنة بينهما برأي محمد بازي.⁽¹³⁾

وقد استطاع الكاتب علي كنعان -برأيي- أن يختار عنواناً معبراً دالاً على نصه من
حيث نسقه اللغوي والثقافي في آن واحد، يتميز بطاقة مجازية واضحة، تؤدي وظيفة
إشهارية لهذا النص السردي الروائي الرحلي، وتعمل على إدخال القارئ إلى ملكوته،
وإغرائه به، بما يبعث فيه الدهشة، ويثير فضوله. كما يمكن اعتباره من الأساليب
المبتكرة والتميّزة، لخلق أجواء سياحية متعلقة بهذه الجزر بأساطيرها وغرائبها وحكاياتها
التي لا تنتهي فلذلك تأثيره في جذب القارئ للرواية ومن ثمة الجذب السياحي والدعوة
لزيارة هذه الجزر واكتشاف عجائبها وأسرارها وخفاياها والتمتع بها.

كما يتفنن المتخصصون في الترويج السياحي بإبداع الأساليب الجديدة الجاذبة
للسواح، والمحققة للأجواء السياسية. بالإضافة إلى البنى التحتية الخاصة للسياحة
ومستلزماتها، فإنّ للأفكار والروايات أهميتها ومجالها في ذلك، هي أيضاً.

ولهذا فإن هذا العنوان يمثل انطلاقة أولى في هذه المغامرة مع ما يحتويه من
تلميح وإيماء، وما يخفي من قصص مثيرة من التراث والخيال.

ولقد كان علي كنعان كاتب النص سعيداً باكتشافه أسرار جزر الواق واق،
ووصفها وسرد حكاياتها حتى إنّ القارئ للرواية يشعر وكأنه زارها فعلاً واستمتع بأجوائها.

4- فضاءات السياحة في السيف والمرأة:

سبقت الإشارة إلى أن رحلة علي كنعان في جزر الواق واق... رحلة سياحية مكتوبة
في قالبٍ سردي روائي، وهي -في ذلك- منفتحة على القراءة. ولذلك سنتناول فيها
الفضاءات السياحية، وكيف تظهر وتتجلى، فنحاول تحديد مفهوم الفضاء بصفة عامة،
ومفهوم الفضاء السياحي بصفة خاصة.

1-4- في مفهوم الفضاء والفضاء السياحي:

يعد الفضاء مفهوماً متشعباً ومنفتحاً على الدراسة من نواحي عديدة في اللغة والأدب والفنون... ولذلك سنقتصر على ما نراه يخدم الموضوع.

ولابد من التأكيد على أن محاولة قراءة الفضاءات السياحية والوقوف عند معالمها المختلفة، ومحاولة استنطاقها، تحتاج إلى إدراك مجموعة من القيم والأفكار المؤثرة، التي تجد مرتعها ومرجعيتها في المتخيل العام للمجتمع في أبعاده المختلفة والمتعددة، وفي منظوماته المؤسسية المتنوعة في الثقافة والدين والتاريخ والسياسة وخبائيا المجتمع وغرائبه وأساطيره...

إنّ الفضاء هو جملة المواقع والأماكن وخصوصياتها، والممكنات الثقافية والممارسات الاجتماعية المختلفة. يشغل بوصفه نظاماً من الروابط والعلاقات المشتركة بين الفاعلين فيه والمنفعلين به. (14)

وأما الفضاء السياحي فهو الذي يستقبل الأحاسيس عبر المتعة والمرح والحنين والألم والجهد والخيبة والإعجاب، قبل أن يكون واجهة أو استراتيجيات [للتجوال] (15)، وتملكات وعقليات قابلة للملاحظة، إذ يتعلق الأمر في البداية بفضاء "حالم" و"معيش" قبل أن يكون أرضاً للاشتغال منطق اقتصادي أو ممارسة تميز اجتماعي (16) وقد حفلت: "السيف والمرأة: رحلة في جزر الواق واق" بفضاءات عديدة ومتنوعة؛ دينية وثقافية وأسطورية وطبيعية مثل: الجبل والنهر والمدينة وما فيها من نشاط وحركة متعلقة بالناس وعلاقاتهم الحياتية وممارساتهم الاجتماعية وما يميز من قيم وعادات وتقاليد. وسنحاول الكشف عن بعضها بدءاً بـ:

2-4- حقيبة سفر:

حقيبة السفر، تعني الانتقال من مكان إلى مكان، أو العودة من مكان تمت الإقامة فيه إلى مكان آخر، الحقيبة والسفر لفظتان تنتميان إلى الرصيد المعجمي الذي يخص الرحلة: ويخص السياحة في الآن نفسه.

تشكل "حقيبة السفر" في "السيف والمرأة: رحلة في جزر الواق واق"، مفتتحاً نصياً مهماً، لخص فيه علي كنعان كل أحداث رحلته/ روايته.

هل يمكن أن نعدّه فضاء مغلقاً؟ لأنه من العادة أن تغلق حقائب الأسفار، بل تُغلق وفق تشفير ما، لا يعرف إلا صاحبه أو من تواضع معه عليه؟.

لكن الكاتب يشرع في فتح حقيبة سفره أمام الملا. أمام القراء؛ ليعرفوا ما في الحقيبة من أشياء غمالية لم يبخل بها عليهم. قال: «في حقيبة سفري أشياء غالية... سأعرضها في الصفحات التالية لكل راغب، وعسى أن يجد القارئ فيها صوراً ومشاهد من تلك البلاد، تشرق حولها أطيايف من حياتي هناك.»⁽¹⁷⁾

لقد فتح حقيبة سفره أمام القراء ليقروا ما فيها ويستمتعوا بالقراءة، فهي إذًا، فاتحة للمتعة مؤسسة على فعاليتين تنطلق منهما كل عملية إبداعية.

الأولى هي فعّالية القراءة. **والثانية:** هي فعّالية الكتابة. وهما وجهان لفعل واحد؛ فالقراءة لا تنفك تدور في فلك الكتابة، بل هي كتابة. ولكن بطريقة أخرى. والكتابة لا تنفك أيضاً، تدور في فلك القراءة. بل هي قراءة ولكن بطريقة أخرى.⁽¹⁸⁾

وهكذا في حقيبة السفر هذه؛ تنقري الكتابة، وتكتب القراءة، فهي كما قال صاحبها: «حافلة لمحتويات مجازية شتى من رؤى وهواجس ومشاهدات وأحاديث وقراءات، تشكل خلاصة تجربة مكثفة لسنواتٍ ثلاث عشتها في طوكيو، وطفّت في مدن ومناطق عديدة من تلك البلاد.»⁽¹⁹⁾

إنّ المتعة هنا، متعة الرحلة، ومتعة النص الروائي في كتابته، ومتعته في قراءته مبنية على المجاز. والمجاز رحلة وعبور بين الدوال والمدلولات. به يتم صياغة المجرد، وإحضار الغائب، وتمثّل المتخيّل وتمثيله وسرد الرحلة.

تتميز هذه الرحلة **لعلي كنعان** بأنها مكوّنة من رؤى ذهنية، وهواجس نفسية، ومشاهدات بصرية، وأحاديث لغوية مباشرة. وقراءات باصرة بكل هذه الخصوصيات الكامنة في الإنسان. ومن ثمة العمل على إخراجها من قواها الكامنة إلى قواها الفاعلة

القادرة على الممارسة. ممارسة المجاز وممارسة الرحلة بالمجاز. وفتح الحقيبة على محتوياتها المجازية المتنوعة. ومحاولة معرفتها لماذا هي مجازية؟

يجيبنا **علي كنعان** عن السؤال بقوله: «... أولاً: لأنها قراءة خاصة في المشهد الياباني محكومة بالظروف المحيطة بتلك السنين، في مختلف مستوياتها الشخصية والعامة. الواقعية والتمثيلية فكرياً وعاطفة ومعيشة يومية.

وثانياً: لأن كل شيء في حياتنا مجازي عابر، بدءاً من الصرخة الأولى بين يدي القابلة... حتى الشهقة الأخيرة. وهذا البوح، الإعراف والمكاشفة، لا يدخل في معلبات التفاؤل أو التشاؤم، إنما هو شعور حي وإدراك عميق عشته طويلاً. ومازلت أعيشه بفرح وجداني حميم وغبطة روحية غامرة...»⁽²⁰⁾

هكذا يكون المجاز في مقامه ومقتضياته ظروفه، قراءة خاصة في المشهد الياباني، على مستويات متضاهية بعضها ببعض منها: الذاتي الشخصي ومنها العام، ومنها الواقعي والتمثيلي. وما يقتضي كل ذلك من فكر وعاطفة ومعيشة يومية. ويبقى المشهد الياباني مفتوحاً على القراءة، وما دام ذلك كذلك، فهو أيضاً مفتوح على المجاز.

وهكذا يكون المجاز متعلقاً برحلة الحياة من الصرخة الأولى إلى الشهقة الأخيرة؛ أي أن الحياة مجاز، رحلة عبور من نقطة البداية إلى نقطة النهاية. وهذا البوح والاعتراف والمكاشفة يمثل شعوراً حياً وغدراكاً عميقاً عاشه الكاتب **علي كنعان** طويلاً وما زال يعيشه بفرح وجداني حميم وغبطة روحية غامرة. هو أيضاً مجاز. وقد كان يحلم بالسفر منذ الطفولة. وهو إذ يحلم بالسفر؛ فهو يحلم بالمجاز أيضاً؛ لأن السفر مجاز.

إنّ الحقيبة والسفر مفهومان أساسيان في اصطلاحات السياحة، ولم تكن حقيبة **علي كنعان** كباقي الحقائب، كانت ممتلئة بالمحتويات الغالية الثمينة، ولم يكن سفره من أجل السفر فقط؛ وإنما كان سفرًا طويلاً، دام ثلاث سنوات. فاستمرار الزيارة وطولها يحدد سيكولوجية سيروية هامة في العلاقة بالأمكنة، ومعرفة أسرارها.

وهنا يظهر الإنتقاد الموجّه إلى السائح المستعجل مُعطىً ضمناً: البطء صفة السائح الجيد.⁽²¹⁾

ولم يكن علي كنعان سائحاً مستعجلاً، بل كان سائحاً جيداً ومسافراً جيداً ذات تجربة طبعها البطء والتأمل.

3-4- بين مطار ومطار:

يمثل المطار فضاء للسفر والرحلة والسيّاحة؛ أي أنه يعني الانتقال من مكان إلى مكان آخر، وبين مطار ومطار آخر، مما يدل على التعدد في المطارات، وأن المسافة بعيدة بين نقطة الانطلاق ونقطة والوصول النهائية. بل إن المسافة مسافات، فبين كل مطار وآخر مسافة. تتعدد فيها نقاط الدخول والخروج والعبور والوصول، مع ما في ذلك من جهد وتعب وترقب وشوق.

وقد بدأت رحلته من مطار دمشق في طائرة باكستانية إلى كراتشي ثم إلى بكين ثم إلى مطار ناريتا التي لا تبعد عن العاصمة اليابانية طوكيو إلا بسبعين كيلومتراً. وقد أُرخ الكاتب لذلك بالأربعاء 07 / 04 / 1993. في جوربيعي صافٍ، وقد كا يودع من خلال نافذة الطائرة «أطراف بادية الشام وملامح البيوت والأشجار التي تتسلق قاسيون...»⁽²²⁾ وفي هذا التوديع يكمن الفراق والغربة والخشية على الأحباب من برد الليالي.

4-4- فضاء المدينة:

تعد المدينة فضاء أساسياً من فضاءات السيّاحة، فهي فضاء جامع، وإن شئنا وصفناه بالفضاء التعددي المتنوع حسب جهاتها، وشوارعها وأزقتها وأنهجها الموصلة إلى ساحاتها وحدائقها. إنه فضاء مركب يتألف من فضاءات أخرى جزئية، لكن بينها علاقات ترابطية محققة ومكوّنة ومحافظة على نسق المدينة، من حيث بناؤها وأشكالها الهندسية المعمارية، ومن حيث أنشطة الناس فيها داخل المجتمع. وهذا الذي يجعل المدينة مؤسسة حية فاعلة في تأدية الخدمات المختلفة للأفراد والمؤسسات الاجتماعية مثل:

التعليم، والإدارة والرعاية الصحية وغيرها... وهي بذلك، تمثل عاملاً أساسياً في البناء الحضاري وتطوره.

يتجلى فضاء المدنية في "السيف والمرآة: رحلة في جزر الواق واق"، بدءاً بمدينة طوكيو العاصمة، عاصمة الشرق، ويصفه الكاتب علي كنعان قائلاً: «... وحين دخلنا أحياء طوكيو فوجئت بأنها لا تزال متوهجة الأضواء وكأنها ترفض أن تنام...»⁽²³⁾ وهي الرابغة على حافة المحيط الهادي...»⁽²⁴⁾ و«تبدوا طوكيو بسيطة متواضعة في طرازها العمراني، إذا استثنينا عدداً من أحيائها المركزية والتميزة بأبراج يرتفع بعضها 60 طابقاً، والزائر الوافد من الغرب تفاجئه المدينة ولا يخفي استغرابه، إذا لم أقل سحرته وكثيراً ما سمعت منهم: «هذه ليست عاصمة ولا حتى مدينة عصرية؛ رغم ناطحات السحاب في وسطها، إنها مجموعة من القرى والمزارع المتجاورة!...»⁽²⁵⁾

أعتقد أنّ هذا الرأي لا يخلو من استعلاء على الآخر، ونكراً لمميزاته من لدن كثيرة من الغربيين، الذين ألفوا هذا السلوك وإطلاق مثل هذه الأوصاف والأحكام في نظرتهم للآخرين.

إن البساطة والتواضع لا يعنيان الوضاعة والتخلف، ويبدوا أنّ هذا الرأي لم يفرق فيه أصحابه بين الحداثة والعراقية، ولم يدركوا أنّ طوكيو عاصمة تجمع بين ماهو حداثي وماهو عريق، وذلك سرّميزها. فالمتمأمل فيها لعله يصل إلى نتيجة وهي: أنّ اليابان فهمت الحداثة كما ينبغي لها أن تفهم، على حقيقتها، وحولتها إلى منجز تكنولوجي عملاق ورهيب له فرادته في العالم. ولكن بالمحافظة على عراقية اليابان واليابانيين في عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم الأصلية الأصيلة.

خلافاً لنا نحن الذين رجفتنا رياح الحداثة، بعنف وقوة أنستنا أنفسنا وهويتنا أحياناً كثيرة.

أورد الكاتب علي كنعان أنّ الباحث الياباني كاواساكي تحدث في كتابه: "اليابان بلا قناع"، وقائع وقصصاً غريبة عن عادات اليابانيين وعلاقاتهم بالعالم الخارجي، وتحدث

أيضا عن مدى استكبار بعض الغربيين وتحاملهم وتعاليمهم على الشعب الياباني، ومن ذلك ما رواه عن الجنرال ماك أوشر الأمريكي الذي كان حاكما أعلى لليابان خلال الاحتلال سبع سنين قوله:

«إن مستوى إدراك الشعب الياباني لا يزيد عن عقلية طفلة في الثانية عشرة من عمرها»⁽²⁶⁾. وهذا الاستعلاء ومثل هذه النظرة القاسية بمثل هذه العبارات الجارحة إنما تعبر كما قال الكاتب علي كنعان: «عن نزعة مرضية متعالية، ولا تليق في بناء علاقات ودية سلمية ومتكافئة بين الشعوب»⁽²⁷⁾.

إنّ العزلة التي فرضها اليابانيون على أنفسهم، وتمسكهم بعاداتهم وتقاليدهم وعبادتهم والوفاء لرموزهم الأسطورية، تمثل وسيلة دفاع أساسية أمام الغربيين، وهي التي حققت لهم هويتهم، ولم تمنعهم من التطور التقني والرقعي والوصول فيه إلى القمة وأرقى الأمم بالاعتماد على أنفسهم.

ثم يصف علي كنعان مدينة "كاماكورا" بأنها: «البلدة الجميلة المشرّعة على البحر من جهتها الجنوبية، بينما تستلقي محاطة بالتلال الأخرى، وتشكل منتجعا سياحيا متميزا بطبيعته الخضراء الناضرة، ومعالمها العمرانية. خصوصا معابدها ومزارتها الأثرية الرائعة. ومنها تمثال "بوذا" العظيم»⁽²⁸⁾. وكأنه بهذا الوصف، يقدم لنا دعوة إلى اقتناء جولة سياحية فيها، كما هو متداول في الإشهار السياحي، ودعوتنا أيضا إلى قراءات الفضاء السياحي الذي يخصها؛ فهي:

- جميلة مشرّعة على البحر.
- وتستلقي محاطةً بالتلال.
- وتشكل منتجعا سياحيا متميزا بطبيعته الخضراء الناضرة.
- وذات معالم عمرانية: معابد، ومزارات أثرية رائعة.
- ومنها تمثال "بوذا".

إنها أوصاف لمدينة يميزها «الانهار والإعجاب وتجاوز العادي، الذي يطبع الأمكنة، عبر التصوير البطولي للفضاء والزمن اليومي، الذي يكيف تجربة الزائر، بما في ذلك السياحة.»⁽²⁹⁾

أشار **علي كنعان** إلى مدن عديدة في رحلته في جزر الواق واق، ووصفها وصفاً شاعرياً دقيقاً بما يفتح الشهية لقراءة هذا العمل الأدبي المتميز. وبما يشوقه لزيارتها إن أمكنه ذلك. وليس ممكناً أن نتحدث عنها كلها، وإنما نكتفي بما تمت الإشارة إليه عينة ومثالا.

5-4- المحطة:

تعد المحطة أهم معلّم في المدينة، وهي بمثابة الشريان الذي يوصل الدم إلى أنحاء الجسم؛ إنها بقلب النابض في المدينة، ولذلك تحظى محطة القطار بأهمية كبيرة في عقل الكاتب وقلبه؛ فهو يستقلها يومياً طيلة ثلاث سنواتٍ في الذهاب والإياب إلى عمله، شأنه شأن جميع اليابانيين.

وقد أعجب **علي كنعان** بالقطار الياباني كثيراً، وبنظامه، الذي يعود دليلاً على العبقرية اليابانية التي لم تقف في طريقها عراقيل الزلازل، كما أنها أحسنت استغلال المساحة الضيقة في اليابان حيث المحلات التجارية والمطاعم والمقاهي تحت المحطة الكبرى.

وتعد المحطة فضاءً سياحياً، لأن وظيفتها لا تنحصر في التنقل فحسب، وإنما هي وسيلة للتنزه والراحة واكتشاف المكان، فتتفرج وأنت راكب على الأسواق والشركات والبنوك، ومرافق الخدمات المتنوعة، والمؤسسات الاستهلاكية الضخمة، ثم تأتي السكنات والحدائق والمجمعات الرياضية. وما على المسافر إلا أن يحدد الجهة والمخرج المؤدي إلى المكان الذي يقصده، وإلا فسيئوه. ومن هنا تأتي أهمية الدراجة الهوائية في تسهيل النقل بين البيت والمحطة والأسواق والمصالح الأخرى. بالإضافة إلى ذلك تقوم حافلات النقل العام بدورها في التوصيل إلى الأحياء الأخرى.

وكما قال الكاتب علي كنعان: «أن في طوكيو وحدها ما لا يقل عن ألف محطة للمترو والقطارات، ولقد حاولت أن أحصي عدد المحطات من خلال تنقلاتي فلم أفجح تماما، لكن العدد من خلال الخرائط والمصورات قارب 1200 محطة أو يزيد قليلا.»⁽³⁰⁾

يعني هذا أن مشروع القطارات في اليابان، مشروع تنموي اقتصادي حضاري، له تاريخ يعود إلى أوائل السبعينات من القرن التاسع عشر، ومنذ ذلك التاريخ وهو يشهد التطورات المذهلة بفضل المستوى التقني الذي وصلته اليابان.

نتبين من خلال ما تطرقنا إليه في: "السيف والمرأة: رحلة في جزر الواق واق"، ومما لم نتطرق عن الفضاءات السياحية، أن العاصمة طوكيو هي -في الحقيقة- مدينة من مدن المعرفة بما تتوفر عليه من خصوصيات منها:

التطور التكنولوجي المذهل الذي حققته في ميادين عديدة في الاقتصاد والتربية والمواصلات والاتصالات، وقد انعكس ذلك على تطوير اليابانيين لقدراتهم الفردية المطلوبة في تواصلهم مع الآخرين. ومع البيئة.

«إن المشاركة المدنية التي تتسم بالالتزام الاجتماعي والسياسي، وكذا الإدراك والإسهام في تحديث الحياة العامة في المدينة ودعم قيم جودة الحياة والمسؤولية الاجتماعية والالتزام والمساواة، تعد من المكونات الأساسية لمدينة المعرفة وجزء لا يتجزأ من الصورة العامة لمواطن المعرفة.»⁽³¹⁾

نرى معظم هذا قد توفر في المجتمع الياباني من حيث السياسية والالتزام الاجتماعي وجودة القيم، ومتوفرا في الفرد الياباني الذي يمتلك كثيرا من المهارات التي تميز مواطن المعرفة المعاصر.

إن مدينة المعرفة هي مدينة سياحية، وكذلك مواطن هذه المدينة، له من القدرات والمهارات ما يجعله يبدع ويبتكر ويحسن التدبير في التكيف مع مقتضيات عصره. ومع ما يحقق الجذب السياحي، ويسهم بفاعلية في إرساء فضائل الفضاء السياحي الذي يحيا فيه.

ويعد الأمن من فضائل الفضاء السياحي في اليابان؛ فالأمن نعمة للسائح، لكي يذهب إلى حيث يشاء دون خوف. وهو عنصر أساسي في تحقيق الجذب السياحي.

5- خاتمة:

أبانت لنا: "السيف والمرأة: رحلة في جزر الواق واق" عن خصوصيات الأزمنة والمعالم وغرائب التاريخ والبعد الأسطوري اللافت للنظر فيها. بالإضافة إلى العادات والتقاليد والأبعاد الأنثروبولوجية، وكل ما تعلق بمكنونات الحياة في اليابان.

وما يميز حياة الفرد والمجتمع الياباني من خصوصيات محققة لهويته اليابانية الأصيلة من نواحي عديدة: نفسية واجتماعية وثقافية وتاريخية ودينية ولغوية...

وقد أبانت لنا هذه الرواية/ الرحلة أن الكاتب علي كنعان قد قام برحلة حقيقية في جزر الواق واق وكتب عنها لتكون رحلة سياحية ممتعة، مزاجاً في ذلك، بين المتخيل الروائي والمتخيل السياحي، ورابطاً بين أدب الرحلة والسياحة، وبين الرواية والسياحة. وهو المنظور الذي حاولنا أن ندرس الرواية في ضوءه.

إن "السيف والمرأة: رحلة في جزر الواق واق"، هي رواية أو رحلة سياحية من ألفها إلى يائها، تتحدث عن فضاءات سياحية يابانية متنوعة، مثل: فضاء المطار والمدينة والجبل والبحر والنهر والجسر والجزر الكثيرة والعادات والتقاليد وأطباق المائدة والجامعة.

كما أظهرت لنا هذه الرواية أن للأم اليابانية بصفة خاصة والمرأة بصفة عامة دوراً حاسماً في إعداد الفرد الياباني لمعترك الحياة بدءاً من الجنين في بطن أمه.

والذي يقرأ هذه الرواية/ الرحلة سيجد أن الفضاءات السياحية بها قد تنوعت فضائلها وتشابكت أحداثاً وتفاعلت، فأثمرت هذا العمل الأدبي الفني الجميل الممتع.

6- قائمة الإحالات:

- ¹- يمكن الإشارة هنا إلى كتاب: رشيد عميرو: المتخيّل السياحي، وقد كتبه بالفرنسية، وترجمه: سعيد علوش، سنة 2013، وكتابي: اللغة العربية والتواصل السياحي، كتبتّه في نهاية 2012، وطبعته سنة 2020 بالمجمع الجزائري للغة العربية... ونذكر أيضاً دراسي عن فضاءات السياحة في رواية: الزلزال للطاهر وطار، سنة 2015.
- ²- ينظر: غدير أبو سنينة: الرواية العربية.. عندما يصبح المكان مرشداً سياحياً والقراءة تذكرة سفر أولى، الجزيرة – نت -: [www.aljazeera.net](http://www.aljazeera.net/Culture), 01/02/2020 يوم: 22/03/2023 ، الساعة: 17:00
- ³- أحمد فرشوخ: تجديد درس الأدب، دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب. 2005، ص 67.
- ⁴- ينظر: بشير إبرير: اللغة العربية والتواصل السياحي، المجمع الجزائري للغة العربية، 2020، ص 216.
- ⁵- ينظر: المرجع نفسه، ص 217.
- ⁶- ينظر: مبروك بوطوق: المتخيّل الروائي العربي... مقارنة أنثروبولوجية <http://www.atanthropos.com> يوم: 03/24/2023، الساعة: 12:00.
- ⁷- ينظر: رشيد عميرو: المتخيّل السياحي، مرجع سابق، ص 34-35.
- ⁸- علي كنعان: السيف والمرأة رحلة في جزر الواق واق، مرجع سابق، دار التنوير. 2014، ص 68-69.
- ⁹- توفي سنة 808 هـ.
- ¹⁰- توفي سنة 900 هـ.
- ¹¹- أستاذ النقد الأدبي بكلية الأسن، جامعة عين الشمس، بمصر، من مواليد 1968/08/06، وهي قصة موجهة للأطفال، <http://www.rewayatmasreya.com>.
- ¹²- علي كنعان: السيف والمرأة رحلة في جزر الواق واق، مرجع سابق، ص 10.
- ¹³- ينظر: محمد بازي: العنوان في الثقافة العربية: التشكيل ومسالك التأويل، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، ط(1)، سنة 2012، ص 15.
- ¹⁴- ينظر: بشير إبرير: اللغة العربية والتواصل السياحي، مرجع سابق، ص 129.
- ¹⁵- وضعت كلمة "تجوال" بدلا من كلمة "تسكعية" التي وضعها المترجم -لأنني رأيت- "التجوال" له دلالة أفضل من "التسكع".
- ¹⁶- ينظر: رشيد عميرو: المتخيّل السياحي، مرجع سابق، ص 93. وبشير إبرير: اللغة العربية والتواصل السياحي، مرجع سابق، ص 130.
- ¹⁷- علي كنعان: السيف والمرأة: رحلة في جزر الواق واق، مرجع سابق، ص 21.
- ¹⁸- ينظر: منذر عياشي: فاتحة المتعة: فعالية القراءة والكتابة، مجلة الموقف الأدبي، إتحاد الكتاب العرب بدمشق، سوريا، العدد 327، سنة 1998، ص 9.
- ¹⁹- علي كنعان: السيف والمرأة: رحلة في جزر الواق واق، مرجع سابق، ص 12.

- 20- المرجع نفسه، ص 12.
- 21- ينظر: رشيد عميرو: المتخيل السياحي، مرجع سابق، ص 90.
- 22- علي كنعان: السيف والمرأة: رحلة في جزر الواق واق، مرجع سابق، ص 23.
- 23- المرجع نفسه، ص 30.
- 24- المرجع نفسه، ص 32.
- 25- المرجع نفسه، ص 39-40.
- 26- المرجع السابق، ص 178.
- 27- المرجع نفسه، ص 179.
- 28- المرجع نفسه، ص 88.
- 29- رشيد عميرو: المتخيل السياحي، مرجع سابق، ص 71.
- 30- المرجع السابق، ص 37.
- 31- فرانثيسكو خافيير كاريلو: مدن المعرفة: المداخل والخبرات والرؤى...، ترجمة: خالد علي يوسف، مراجعة: عمرو عبد الرحمن طيبة ومحمد سيد محمد مرسى، عالم المعرفة، الكويت، دون طبعة، رقم 381، سنة 2011، ص 357.

7- قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد فرشوخ: تجديد درس الأدب. دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب. 2005.
2. بشير إبرير: اللغة العربية والتواصل السياحي. منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، 2020.
3. بشير إبرير: اللغة العربية والتواصل السياحي، المجمع الجزائري للغة العربية، 2020.
4. بشير إبرير: فضاءات السياحة في رواية: الزلزال للطاهروطار، 2015.
5. رشيد عميرو: المتخيل السياحي، ترجمة: سعيد علوش، المغرب، سنة 2013،
6. علي كنعان: السيف والمرأة رحلة في جزر الواق واق، دار التنوير. 2014.
7. غدير أبو سنيينة: الرواية العربية.. عندما يصبح المكان مرشداً سياحياً والقراءة تذكراً سفرأولى، الجزيرة -نت، <https://www.aljazeera.net/Culture>، 01/10/2020. -،
8. فرانثيسكو خافيير كاريلو: مدن المعرفة: المداخل والخبرات والرؤى...، ترجمة: خالد علي يوسف، مراجعة: عمرو عبد الرحمن طيبة ومحمد سيد محمد مرسى، عالم المعرفة، الكويت، دون طبعة، رقم 381، سنة 2011.
9. مبروك بوطقوفة: المتخيل الروائي العربي... مقارنة أنثروبولوجية. <http://www.atanthropos.com>

10. محمد بازي: العنوان في الثقافة العربية: التشكيل ومسالك التأويل، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، ط(1)، 2012.
11. منذر عياشي: فاتحة المتعة: فعالية القراءة والكتابة، مجلة الموقف الأدبي، إتحاد الكتاب العرب بدمشق، سوريا، العدد 327، سنة 1998.